السرديات العربية القديمة، النشأة والتطور

4- السرد في الثقافة العربية القديمة، نشأته وتطوره:

لقد أدت ثقافة العرب المتعالية إلى الاهتمام بالشعر بوصفه الظاهرة الأدبية والفنية الأولى أو ديوان العرب كما يصطلح عليه، ولقداختُزلت الثقافة الأدبية العربية على هذا الأساس تقريبا في هذا النمط الذي كان ينظر إليه على أنه النمط الفني الوحيد القادر على تمثيل المخيال العربي والإسلامي، وقد أثرت هذه النظرة في التفكير النقدي العربي القديم وفي توجهاته، فأدى ذلك إلى إهمال سرديات عربية زاخرة بفيض سردي، بما حوت من مادة حكائية وتاريخية وإخبارية، لا لشيء إلا لكونها ب فن دخيل على الثقافة العربية، على الرغم من أنها استطاعت أن تختزن بدورها حياة العرب وأمزجتهم وتجاربهم الحياتية.

وقد يزداد الأمر غرابة لَم نرى تكريس القرآن الكريم للنسق السردي بما اشتمل عليه من جوانب سردية مبهرة تمثلت في القصص القرآني الذي عمد إلى توظيف القصة لأسباب دعوية وتربوية. ولعل ذلك راجع في بعض جوانبه إلى كون الشعر مرتبط في الغالب بأشخاص معروفين بينما السرد لا يعرف واضعه فهو غُفل، إضافة إلى تكريس الموقف الأخلاقي في التعامل مع المادة السردية، إذ لم يخل من النظر إلى المرويات القديمة المتخيلة-التي تحكي وقائع متخيلة- على أنه نوع من التلفيق والكذب يقول المسعودي عن كتاب ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة: " وقد ذكر كثير من الناس ممن لهم معرفة بأخبارهم أن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب للملوك بروايتها وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة بها، وأن سبيلها الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية.."[9]. لهذا وصل الأمر في بعض الأحيان إلى التشكيك في الكثير من المرويات ورفضها رغم طابع الإسناد، وسلسلة الرواة التي تسبقها، كما تجاهله الدرس النقدي فيما بعد، يقول محمد رجب النجار" أن التراث القصصي هو تراث شفاهي، أو هو تراث العامة فاستعلى عليه الدرس الأدبي، وأنه تراث لا شكل له، فتجاهله الدرس النقدي والبلاغي بسبب أخطاء منهجية وسوسيولوجية ومن ثم لم يواكبه تنظير نقدي يدخله في نسيج الجماليات كالشعر والنثر غيرالقصصي .يضاف إلى ذلك :الموقف العدائي لفقهاء الدولة ورجال

[9] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 259.

الحسبة وأمثالها، من هذه القصص ومن) أكاذيب القصاص (و)خرافات العوام (الذين تطاولوا فتناولوا)المسكوت عنه (دينياً وسياسياًواجتماعياً في أكاذيبهم).وخرافاتهم الرمزية[10].

لكن على الرغم مما قيل عن ذلك، فالعرب مارسوا الحكي هم كذلك منذ القديم، وظل السرد يسير بتُؤادة وروية في ظل مركزية الشعر وهيمنته، يرسم حياة العرب وأيامهم، ويطرز أحلامهم، ويصوغ تمثلهم للعالم والتاريخ والآخر، حتى قيل : " الآداب عشرة: فثلاثة شهرجانية، وثلاثة أنو شروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربت عليهن، فأما الشهرجانية فضرب العود، ولعب الشطرنج، ولعب الصوالج. وأما الأنو شروانية فالطب، والهندسة، والفروسية. وأما العربية فالشعر، والنسب، وأيام العرب، وأما الواحدة التي أربت عليهن، فمقطعات الحديث، والسمر، وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس"[11] ، لذلك عدّت الثقافة السردية "مضمارا أصيلا أبدع فيه العربي، وعلى مدى عصور طويلة، نصوصا في منتهى البراعة والحسن والجمال. ولقد وصل العديد منها إلى مستوى العالمية. وصار أنتاجا إنساني البعد والنزعة وعلى درجة سامية من الإبداع الإنساني الرفيع"[12] وليس أدل على ذلك كتاب **الليالي العربية** أو **ألف ليلة وليلة** كما هو معروف، **وكليلة ودمنة ورسالة الغفران وسيرة عنترة وسيف ين ذي يزن** وسواها من الأعمال السردية الخالدة. لهذا أمكن أن نقول أنه لم تقم حضارة العرب على الميراث الشعري فحسب، بل كان للميراث السردي نصيب في تشييد صرح الثقافة العربية بما فيها المتون الشعرية نفسها.

لا يمكن تحديد تاريخ محدد لنشأة السرد العربي باعتبار السرد في جوهره نشاط إنساني رافق الإنسان منذ ظهوره على الأرض ونمى بنمائه. فتمظهرات السرد العربي القديم قد عرفت قديماً قدم الشعر نفسه- كما أسلفنا الذكر- مع مرويات العرب في مسامراتهم اليومية التي تحكي بطولاتهم وأخبارهم وأيامهم، أو في أمثالهم وحكمهم، غير أن الكثير من المرويات قد تكون الأصول الدينية الشفاهية هي التي أسهمت في صياغتها وتشكلها؛ يقول الناقد عيد الله إبراهيم: " نشأ كثير من الأنواع السردية في الموروث النثري بتأثير من الأصول الدينية، التي وجهتها أول الأمر، وجهة دينية، قبل أن تنفصل عنها وتؤسس كيانها الخاص...إلى درجة أن مكونات البنية السردية من راو ومروي ومروي له، هي، إن أنعمنا فيها النظر،

[10] محمد رجب النجار: التراث القصصي في الأدب العربي مقاربات سوسيو-سردية، مج 1، ط 1، دار السلاسل، الكويت، 1995، ص 1 .

[11] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ج 1، ص 9.

[12] سعيد يقطين: السرد العربي المفاهيم والتجليات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط 1، 2012، ص 61.

تتحدّر من أصول دينية-شفاهية-ظهرت وتجلّت من قبل في علوم الحديث، ممثلة بنظام الإسناد"[13]، ويظهر هذا جليا في انفتاح مفسري القرآن ورواة الحديث على سرد ما جاء في القرآن من أخبار، وذكر المغازي وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخبار الأنبياء السابقين والتأريخ للقرون الأولى..إلخ

ولقد شكلت هذه المرويات القصصية في بدايتها طابع القصة بمعناه العفوي لا الموضوعي، فجاءت في شكل حوادث ووقائع تروى شفاها؛ كحرب البسوس وداحس والغبراء وموقعة ذي قار...إلخ، تخليدا لتاريخ القبائل العربية وأبطالها وانتصاراتهم وانكساراتهم في الحروب. كما اتخذت في جانب آخر شكل محكيات تركز على بعد أسطوري (كحكاية زرقاء اليمامةً)، لهذا هيمنت الخرافات والأساطير على الكثير من المحكيات.

وقد يدفعنا هذا، للقول بأن العرب عرفوا أشكالاً سردية تناقلت عبر الأجيال في إطار أساطير الأولين، فقد كان فن السرد العربي في بدايته فنا شعبيا يغلب عليه طابع الشفاهية استجابة لثقافة العرب(*) لكن مع تطور الحياة العربية الإسلامية ثقافياً واجتماعياً بفضل احتكاك العرب بثقافات أمم أخرى، استيعابا وترجمة ونسخاً لاسيما بعد ظهور الورق وشيوع حرفة النسخ وتعدد النقلة، وشيوع الكتابة بتدوين شتى المعارف الإنسانية؛ انتقل هذا السرد من طابعه الشفاهي إلى مرحلة الكتابة بفضل تطور مفهوم الدولة الإسلامية نفسها وتنوع دواوينها وكتابها، حيث عرفت حركة تدوين واسعة ابتداءً من القرن الثاني الهجري، فكان الأدب القصصي من الآداب التي عرفت سبيلها إلى الجمع والتدوين ثم في مرحلة تالية إلى التأليف. ويعد

---

[13] عبد الله إبراهيم: النثر العربي القديم، بحث في البنية السردية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الدوحة، قطر، ط 1، 2002، ص 8.

(*) كان العرب أكثر ارتباطا بالثقافة الشفوية، لما تطلبه الدين الإسلامي من حفظ للقرآن الكريم وتلاوته، وجمع للحديث النبوي الشريف وروايته. ولقد استمر إنشاد الشعر ورواية الأخبار والوقائع والأيام، كما استمرت ظاهرة الأسواق الموسمية، مثل سوق عكاظ وذي المجاز ودومة الجندل في الجاهلية وسوق المربد والبصرة في الإسلام، كما استمرت تقاليد السمر والمجالس الأدبية في بلاطات الخلفاء والأمراء والقادة .ولعل الطريف في الأمر أن العرب ظلوا متمسكين بالثقافة بالشفوية حتى في العلوم، إذ لم يكن العلم عندهم ما وعى **القِمطر** أي في الكتب، وإنما كان العلم في رأيهم ما وعاه **الصدر** أي في السماع والحفظ – كما قال شاعرهم:

ليس بعلم ما يعي القمطر** **ما العلم إلا ما وعاه الصدر**

ينظر : ركان الصفدي: الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ط 1، 2011، ص 17.

كتاب كليلة ودمنة مستهل عملية التأليف القصصي التي استمرت وتيرتها على مدى العصور الإسلامية اللاحقة.

والتراث القصصي العربي زاخر بالكثير من السرديات التي تقسم عادة حسب الموضوع والشكل إلى تسعة أنماط هي:

1- الأساطير والخرفات
2- القصص الديني كقصص الأنبياء للكسائي
3- قصص الحيوان ككتاب كليلة ودمنة لابن المقفع
4- القصص العاطفي كمجنون ليلى والأغاني للأصفهاني
5- المقامات كمقامات بديع الزمان الهمذاني ومقامات الزمخشري والحريري
6- القصص الخيالي كألف ليلة وليلة ورسالة الغفران للمعري
7- القصص الفلسفي كقصة حي بن يقضان لابن الطفيل
8- السير الشعبية كسيرة عنترة وسيرة سيف بن ذي يزن اليماني
9- النوادر والحكايات الفكاهية كبخلاء الجاحظ وحكايات جحا

- **السرد العربي القديم وإشكالية التجنيس:**

تطرح مسألة التجنيس إشكالا حقيقيا لما يتعلق الأمر بالسرد العربي القديم الذي عرف تحولا وانتقالا كبيرا في التجربة التخييلية والواقعية من الشفوية إلى النصية، لاسيما فيما يتعلق بوضع حدود فارقة بين الأنواع السردية المختلفة التي عرفتها مدونة الأدب القديم؛ وذلك لجملة من الأسباب منها: غياب الوعي بالسرد تنظيرا وتجنيسا في الفكر النقدي العربي القديم، وغياب من ثمة المعايير النقدية التي يتحدد على إثرها التجنيس السردي، فالكثير من القواعد التي نعرفها في مسارات السرد الحديث الآن وضعت في الأصل لأشكال روائية حديثة " في حين أن هناكأشكالاً قصصية عربية تخرج عن هذه التقسيمات خروجاً كلياً أو جزئياً، مثل المقامة والقصة الصوفية المتأخرة والقصة الفلسفية، ولا يجدي قسرها وتطويعها لقوانين السردية الحالية"[14] . فما يسمى بالنقد القصصي الذي على إثره تحددت الكثير من المصطلحات

[14] ركان الصفدي: الفن القصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري، ص 10.

الفنية المعروفة كالرواية والقصة والمسرحية...إلخ، إنما هو علم حديث، وأن هذه الأشكال التي أشرنا إليها لم تعرفها مدونة النقد القديم.

وثانيا لكون البنية السردية للمادة المروية تتداخل في الكثير من الأحيان مع مواد نثرية مجاورة ذات بعد إخباري وحكائي ضمن التفاعل النصي، فيتداخل مثلا ما هو أدبي مع ما هو تاريخي كالأخبار والتراجم والسير والطبقات، التي تتشكل وفق نمط سردي أكسب هذه المرويات التاريخية مسارات حكائية، حيث يشكل" السرد العربي صورة جلية لنمو الأشكال الشفوية المتحولة إلى نص مكتوب ينوجد في حقول شتى وسط كتب الأدب المتنوعة، ومؤلفات التراجم والسير والطبقات، ونصوص المقامات والأخبار، وكل التقييدات المحسوبة على التاريخ والجغرافيا الوصفية والرحلات..."[15] .

[15] شعيب حليفي: السرد العربي التشكل والامتداد، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، يناير 1999، ص 61-62.